الاسم : محمد MOHAMED

اللقب: سرير SERIR

البريد الالكتروني:serirmohamed_2006@yahoo.com

الوظيفة: أستاذ محاضر أ جامعة يحيى فارس المدية

عنوان المداخلة: صورة المدينة بين الأثر المادي والمتخيل الشعبي الشعري

مدينة تلمسان نموذجا

مقدمـة:

اعتبرت الثقافة الشعبية ثقافة الإنسان بصفتها المصاحبة له في شتى ميادينه، و قد عرفت تباينا شاسعا في مواضيعها وطرق معالجتها، وقد سايرت الإنسان في كل مراحل حياته فكانت معه في مأكله ولباسه واحتفالاته وأعماله اليومية، حتى سادت فضاءه الفكري والروحي، فمن هنا ولد ما سمي بالشعر الملحون لون من ألوانها الذي نبع من أعماق النفس البشرية، معبرا عن آمالها وآلامها، محاكيا لحياتها باحثا في كينونتها.

وأول ما يحرك مشاعر الشاعر ويطلق العنان لخياله المتزن بفكره، اتصاله بمحيطه الخارجي وخاصة الموطن الذي يأويه فهو الحامي له والناصر يحقق له كرامته وسؤدده فهو ذو عزة وكرامة ما دام وطنه عزيزا، وإن هان يهن، من هنا نرى الشاعر يبث آلامه ويرثي مآثره طالبا عودة عزه ومجده.

هذا ما نراه ساريا في مدينة تلمسان ولسجلها التاريخي الحافل، الّذي ملأ صفحات المجلدات، وأسال مداد الأقلام، ولا زال موضوعا يملأ فكر الباحثين والدارسين، في معرفته وتمحيصه، لما فيه من صور ثقافية واجتماعية ودينية واقتصادية تساهم في عملية التنمية التي يكون فيها الشعر الشعبي الحجر الأساس، فهو يخاطب الآخر باعثا بذلك رسالة ثقافية وانسانية، يبيّن فيها صورة تاريخية عبر قناة شفاهية جمالية.

تلمسان ثقافيا:

اشتهرت مدينة تلمسان بكونها الحاضرة السياسية والثقافية والعلمية، الّتي احتضنت عددا من المراكز الدينية والعلمية واستوطنها كثير من العلماء والأدباء، وازدهرت فيها الحرف والصنائع والفنون وبلغت درجة كبيرة من التطور الفكري والاقتصادي، بوأتها لتحتل مكانة الصدارة، منافسة بذلك أكبر المراكز الفكرية والعلمية بالمغرب الإسلامي مثل القيروان وفاس وقرطبة.

هذا ما حمل شعراء المدينة إلى العمل على مدحها، وذكر مآثرها، وبكاء آلامها، ورثاء دمارها، فكان بذلك رصيدا أدبيا حافلا وصف العمران، والدور، والمدارس، الّتي سايرت تاريخ المدينة من العهد الزياني والمريني والمرابطي والموحدي، ولا زالت مآثرهم ماثلة للعيان تنبئ على مدى ولههم الفكري في حمل المدينة على مواكبة العصر، بل امتيازها بشرف نشر العلم، و تكوين العلماء، فنجد على سبيل المثال مدرسة "أولاد الإمام" الذي أسسها أبو حمو موسى الأول، أول مدرسة في تاريخ بني زيان وذلك سنة 710هـ الموافق 1310م وقد أنشأها تكريما للعالمين الفقيهين أبي زيد عبد الرحمن، وأخيه أبي موسى عيسى بني الإمام الفقيه أبي عبد الله محمد بن الإمام بن يرشك.

كما توجد المدرسة التاشفينية ثاني مؤسسة زيانية، أسست بالمغرب الأوسط بناها السلطان أبو تشفين بن أبي حمو موسى الأول الذي تولى إمارة تلمسان في الفترة ما بين 718هـ الموافق 1318م و 737هـ الموافق 1337م، و يتبع ذلك المدرسة اليعقوبية التي تقع بالقرب من المقبرة الزيانية، الّتي تضم ضريح أبي يعقوب والد السلطان أبي حمو موسى الزياني (760- 791هـ) (1358-1388م)، و أعمامه سعيد عثمان، وأبي ثابت الزعيم.

كما تواصل النور الثقافي بإنشاء المدارس في العهد المريني (732-759هـ) (1331-1357م)، بإنشاء مدرسة العباد المسماة "مدرسة سيدي بومدين الغوث" في قرية العباد، التي أمر ببنائها السلطان أبو الحسن علي بن أبي سعيد عثمان المريني (747هـ/1347م)، كما نجد مدرسة سيدي الحلوي بناها السلطان المريني أبو عنان فارس سنة 754هـ/1353م، تقع المدرسة بجوار الضريح الذي يضم رفاة الولي الصالح المتصوف، أبي عبد الله الشوذي الاشبيلي المعروف بسيدي الحلوي.

وجل هذه المدارس طمست فيما بعد من طرف الاستعمار الفرنسي، زيادة إلى هذا سياسة الأتراك التي عمّها الظلم والفساد ما أدى إلى قلة الأمن وبالتالي خروج العلماء وأفول منارة العلم والبناء والتشييد.

ونجد من أهم شعراء المدينة في الملحون الشاعر أبو عبد الله محمد بن مسايب الذي يقول في قصيدة له مطلعها:

ربي كتب عليها والوقت دعاهـــــا في السابق المقدر كان اللي كان
سعد السعود دارت ليام معاهـــــا وتكبس الزمان عليها وشيـــــان
عدمت مشات فسدت والظلم خلاها مدينة الجدار بلاد تلمســـــان[1]

يرثي مدينته التي عاش فيها وأحبها لما شابها من فساد وطغيان الظلم، ونظرا لما بها من جدران محيطة بها سماها بذلك "مدينة الجدار"، كما أننا إذا عدنا لتاريخ اسم مدينة تلمسان نجده اسما بربريا، وهو تحريف صفة جمع وهو تلمسان تِلْمِسينْ بكسر التاء وسكون اللام وكسر الميم، مفردة تلماس ومعناه جيب ماء أو ينبوع، يكون معنى اسم تلمسان مدينة الينابيع وهذا المعنى يتلاءم تماما مع إقليم تلمسان لكثرة مائها.

كما أطلق عليها الرومان اسم "بوماريا" وتعني البساتين وأطلق المرابطين عليها اسم أجادير في القرن الخامس الهجري، الحادي عشر الميلادي وأطلق المرينيون عليها اسم المنصورة بداية القرن 8هـ وهذا يدل على أهمية المدينة وموقعها الاستراتيجي لما قام فيها من دول وبني فيها من منشآت.

ثم يقول:

الناس كل من يدخـلهـــــــا يستحتن الوطن و البقـعـــــــــــة
بالعلم مرفوع و الحكمة كملهـا باشغال من اتقن الصـنعـــــــــة
خلا الخنادق و نـزلهـــــــا بين البعل و بين القلـعـــــــــــة
في مواسط الجبل و عـرهـــــا وبناها واعمـل صوار وابـراج وبنيـان

[1]– محمد قاضي، الكنز المكنون في الشعر الملحون، تقديم و اقتراح أحمد أمين دلاي 2007، crasc، وهران ، الجزائر، ص 175.

و اعمللها قواعد بهم وطاهـــا واعمللهـــا فنار من البعد يبـــــــان[1]

هاته المدينة التي بزغ فيها العلم وسما، والتي تربعت بين علو الجبال فضمنت بذلك التحصن من الغارات فهي أسفل جبل البعل حيث الولي سيدي الطاهر، وقد يقصد السلطان المريني الذي بنى مدينة المنصورة، وزاد في أسوارها وأحكم بناء المدينة.

يحاول الشاعر ملامسة آثار بلاده، وتذوق حلاوتها مستمدا بذلك قوة خفية يستعين عليها في خدمة مجتمعه، لأن وظيفته الأساسية في حفظ نسله ودينه ووطنه، فهو جزء من كل، فلا مكان له إن ذهب الآخر، هنا تظهر هذه العلاقة التبادلية التي تجرنا إلى مبدأ الوئام، و العمل على الترابط العلائقي ذو الأساس الوظيفي، و كأنه كان يعمد إلى بناء حضارة يراها تسقط إمام عيونه و ثقافته تروح أدراج الرياح ثم يقول:

فاين هما ناس تلمســـــان كلهم شيـــــــوخ و شبان

بعض منهم حوز البيبـــان داخل الحصن و من خرجوه

اين أهل الدار المكنـــــون من قرا وحفظ كل فنـــــون

أحمد بن ناصر مدفـــون تحت باب العقبة قـــــبره

واين هما أهل أقاديـــــــر والربط أهل أفعال الخـــــير

الامام العادل الوزيـــــــر سطوة المستحسن عـــــدله

واين سيدي الحلوي المتهوم من تكلم لارباب القـــــوم

اجهر من قطع الحلقـــوم جاوب البواب وسمـــــعوه

قال للبواب اعـزم قـــوم اغلق الباب وسير تنـــــوم

ما بقى الا الحلوي المظلوم في الخلا دبحوه و صـــــلبوه

واين أولياء الله من هـــان دون كل بلد تلمســـــــان

انباعت رخيص بلا تمان دا العجم وطنها خـــــربوه[2]

---

[1]– المصدر نفسه، ص 175.

[2]– ابن مسايب، الديوان، جمع و تحقيق محمد بن الحاج الغوثي، نشر ابن خلدون، تلمسان، د.ط، 2001، ص 186.

ولا زالت القصيدة طويلة حيث تبلغ 192 بيت تحدث فيها الشاعر عن أولياء المدينة، ورثاء غيابهم فهم أعمدتها وأعلامها نراه يعيش زمانه الحالم مضمنا زمانا يائسا وآخر محرما، حالما بزمان الأولياء والعيش في ظلهم، ويائسا من عودتهم، فصار بذلك زمانا محرما عليه لا يستطيع الوصول إليه، هي قطيعة زمانية، لكنها ذات امتداد ثقافي وروحاني فذكرى الأولياء ورجال العلم والصلاح، هو بمثابة الرابط الروحي لعودة القوة الضائعة، وتأسيس المجد الغابر، فالإمساك بكوامن الذات، والعمل على تجسيد مقوماتها وتحريكها بإدخالها دائرة الفعل، وإخراجها من دائرة السكون، يقود حتما إلى التطور، وعلى العمل الممنهج، فقيام الحضارة لن يكون إلا بما بدأه الأولون.

ولنعد قليلا لنرى ما فعل أجدادنا وأين وصلوا بفضل إيمانهم وتمسكهم بعقائدهم، وإلى ما وصلنا نحن فيه الآن لما ضاع تراثنا وحبسناه في المتاحف والصفحات وعدنا للآخر نمتص ثقافته راجين بذلك تحقيق الرقي فكيف يتسنى بناء الحضارة أمام الإعصار، فلا بدّ من امتصاص القوة من تاريخ البلاد، حتى يتسنى لنا المواجهة، ونحقق بذلك التنمية، التى تحملنا على تحقيق الذات.

((وباستقراء التاريخ نجد أنه لا يمكن لأي دولة أن تبني حضارتها المعاصرة، إذا لم تستند إلى تراثها الحضاري وتستفيد منه في البناء الجديد، وهذا إنما يعد من مميزات الثقافة الفلكلورية، بالإضافة إلى الاعتماد على التربية وسيلة رئيسية في هذا لإدخال ما يقترح من حلول، في صلب العملية التربوية والتعليمية))[1].

هي ذي صورة تلمسان التي رآها الشاعر وأعدها لغيره فقد ألف الحياة وعرف كينونتها، وحمل نفسه على إبلاغ ما جادت به قريحته، طالبا عودة مجدها، فقد عرف أنه لا مكان ولا نجاح لأي فرد إن غاب تاريخه، ودافعه الذي تمثل في ثقافته وتراثه.

كانت بلاد مجد و رفـــعة ومقامها مشرف وعـــالي
فيها اهل الفضل مجتمـعة سادات كل سيد و والـــي
تكسبت ارباب الصـنـــعة من افعالها المال احـلالي
و كانت بلاد ملوك و وزرا وجنودهـا قهـر و امـوالي
لبدة محزمة و مشتمـــرة وخيولـــــها تـضل تشالي

[1]– هيام الملقى ، دراسة في الفلكلور و الثقافة "نحو تأصيل لعلم الإنسان"، دار الشواف للنشر و التوزيع، الرياض السعودية، 1990، ص407.

واليوم ولات في عبـــــــرة لا يد لا رجـــــــل لا والي

غابو لها رجال النعـــــــرة وامسى وطن وكـــرها خالي

زمانها نكاها و السعد جفاها في السابق مقدر كان الي كان

ذا الحال ما عزم بها ما هناها بقات كالحرانة في شدق ثعبان[1]

لا تزال وتيرة الرثاء سارية ووصف المدينة التي آلت إلى الانهيار بسبب غياب ملوكها وجنودها، ذهب رجال الذود عن شرفها، الذين وهبوا أرواحهم فداء لكرامتها، وهم بذلك يتركونها أمانة لغيرهم لكنها للأسف سقطت في أيدٍ غير أمينة.

ثم يعود ليعطي نفسه ارتياحا وطمأنينة فيقول أن القدر حكم بهذا منذ الأزل:

ذا القوم ما معاهم شـــــــــفقـة ما يرفقـــــــــــوا بمن ولاهـم

الأيام ساعدتهم والــوقت حماهــم وتناصروا على الإثم والعـــدوان

خربوا البلاد والمخــزن زاد عماها الأسواق خالية و الــباطل رنان[2]

يبكي الأيام الخوالي وتلك المدارس العامرة بالعلماء، فجاء **الأتراك** بظلمهم وغيهم خربوا الديار، ونشروا الفساد ذهب الحياء والمروءة، وصارت البلاد مطمعا لكل طامع خلت الأسواق وعم الباطل حتى صار باطن الأرض خير من ظهرها.

ربي بجاه حـــــــــواء وآدم سلتـــــــــــك بحرمة الانبيا

تلطف بذا المدينة واعـــــزم بجميع نـــــــــاسها الكلية

بجاه كل من هو مسلـــــــم والصـــالحين وأهـــــل النية

تعف على بن مسايب و ارحم روحـــــــي اذا فنات وحـية[3]

---

[1]– محمد قاضي، الكنز المكنون في الشعر الملحون، ص 176.

[2]– المصدر نفسه، ص 178.

[3]– المصدر نفسه، ص 178.

ينهي قصيدته بالرجاء والتوسل لمن هو على كل شيء قدير وعليم، بيده ملكوت كل شيء وكل لأمره مكين، فلا زال أمله باق، وإيمانه بإله قوي، هو ذا الزمان الحالم الذي يرومه، مع يقينه أنه لا نجاح ولا فوز إلا بالعودة للذات القومية، وتوحيد الجهود للقضاء على المستعمر الغاشم، فهو يحرك ذوات العرب، و أهل المدينة كي يذودوا عنها ويحملوا سيوف أجدادهم ليصبحوا حكام مستقبلهم.

((والواجب أن نعي ذاتنا التي توقفت عوامل فعاليتها عدة مئات من السنين، بل آلافا من السنين وعيا يرتكز على تاريخ أمتنا وثقافتها، على أن يرتكز دور المفكر ورسالته في هذا على تاريخ السواد الأعظم من المجتمع، إنها تلك الذات الثقافية الإسلامية، التي وضعت حدا بين ذاتنا قبل الإسلام وذاتنا بعده، وهي ذات قوة معنوية تفعل فعل السحر، وتثير الدهشة، فتقضي على كل الأشياء، الّتي كان قد اشتد في سبات عميق، فتحرر المجتمع من جميع أنواع القالب التي جمدته فتنتقل به من الموت إلى الحياة ومن السكون إلى الحركة))[1]

2 – تلمسان اجتماعيا:

عرفت مدينة تلمسان مجتمعا متباينا به مزيج من الطبقات والشرائح الاجتماعية، من علماء وفقهاء وحرفيين، ولكن ما يميز المدينة في القصائد الملحونة التي أعمل عليها وأغلبها كانت في القرنين 11 و12 الهجريين ما تميز بالحكم العثماني، حيث عمّ الظلم ما أدى بالمدينة إلى التقهقر والدمار، حتى جاء الاستعمار الفرنسي فزاد الظلم والاستبداد، وأصبح أهل المدينة غرباء والغرباء أهلون لها.

ونجد للشاعر سعيد بن عبد الله التلمساني المنداسي، الذي عاش بمدينة تلمسان، ويعتبر من فحول الشعراء في الشعر الملحون، فقد عاش بالمدينة ورأى نمط الحياة فيها، وما فعله حكامها من ظلم لسكانها، وتزيد فضاعة الظلم لما يكون الآمر أو المفتي من أهل المدينة، فالواجب عليه أن يدافع عنها ويحفظها بكل ما أوتي من قوة، لا أن يساهم في تدميرها وقتل أهلها وتشريدهم.

وقد أبدع الشاعر في قصيدة سميت "الإعلام فيما وقع للإسلام من قبل الترك بتلمسان والجزائر" يقول الإمام أحمد بن مصطفى برناز التونسي أفتى ابن زاغوا الفقيه لأمير تلمسان "حسن" في الشدة على أهلها، فقتل كثيرا منهم وهدم مبانيهم، وسبى نساءهم وذراريهم، وأذن للجند فعاثوا فيها فسادا، وتأثر للواقعة شيخ مشايخنا سعيد بن عبد الله المنداسي وأنشأ قصيدة طويلة في

[1]– هيام الملقى، دراسة في الفلكلور و الثقافة، ص 44.

الموضوع، سماها الإعلام فيم وقع للإسلام، وعرض فيها بالمفتي المذكور وهجا الترك، وسلط الله على ابن زاغو مرض الجذام فمرض به ثلاثة أعوام حتى مات.

يقول الشاعر:

وأكبر شـيء أفسدته أكفهـــــم تلمسان عين الغرب علما و ايمانا

وكانت لهم لما أرادوا فســـــادا أراذل مـــــــنها كالبطارق أعوانا

فمنهم قرين السوء مفتي بلادهم تود العبـــاد الترك كانوا و لا كانا

فقل لابن زاغو للضلال أيمــة تدبـــــر لحاك الله ما قال مولانا[1]

إن الشاعر ينبئنا عن الحالة الاجتماعية التي آل إليها أهل تلمسان، التي يشهد لها بالعلم والإيمان، و قد ابتلوا بحكم الأتراك، وما زاد الطين بلة لما يكون مفتي الديار مسلط العذاب على أهله، حتى إن العباد تمنوا حكم الأتراك ولا حكم مفتيهم، كيف طاب الأمر لهذا المفتي وهو العالم بكتاب الله وشريعته أن يحكم بما لا يرضي الله فقد خالف ما تعلم وما علَّمَ.

يقول:

لقد كنت حبرا بالمدينة صالـــحا فصـــــرت بها أخا القرامط حمدانا

قتلت فحول العلم صبرا و لم تزل على عهدك المعلوم في الزيغ هيمانا

ما فعل القوم إن آل الأمر بهم إلى مفتيهم، فزج بهم في مذبحة عظيمة، بعد ما كان الحبر فيهم، فصار هائما في الزيغ والضلال.

يقول:

فقل لابن زاغوا رأس كل خطيئة فلا تحسب الفتك بالأهل سلوانا

ولكنك الدجـال للناس فتـــــنة تأهب لروح الله فالحين قد حانا

فان أضحكتك الجند بالناس ساعة فلا تغتر فالله يكفيك أزمانا [2]

---

[1]– ديوان سعيد بن عبد الله التلمساني المنداسي، تحقيق المرحوم رابح بونار – الشركة الوطنية للنشر والتوزيع – الجزائر:1976، ص 91.

[2]– المصدر السابق، 92.

قد بين الشاعر الحالة التي يؤول إليها المفتي ابن زاغوا وما الله بغافل عما فعل ولا بد له من ملاقاة حسابه على يد أعدل العادلين وما فعله الجند بالناس كان له تسلية وزهوا فذاك غرور منه زائد و الله كاف عباده فيه و فعلا قد نال جزاءه والجزاء من جنس العمل فمرض بالجذام طيلة ثلاث سنين ثم مات بعدها.

كما هام الشعراء بجمال المدينة وأحيائها وتغزلوا ببناتها واصفين جمالهن وزينتهن ونجد على رأسهم الشاعر الشعبي التلمساني بومدين بن سهلة الّذي عاش بالمدينة وأحبها لكنه وجد الوحش فيها وذاق الظلم حتى هاجر إلى أقصى الغرب الجزائري عند أعمامه ((وقد كانت مدينة تلمسان مدينة راقية و وافرة الرخاء ومن ثمة كانت تتوفر فيها جميع أسباب الحضارة والعيش الرغيد وعلى الرغم من كثرة مواردها وخيراتها فقد كانت الطبقة الشغيلة الكادحة تعاني الفقر والحرمان من جراء سوء تصرف الحكام و جشع الأغنياء))[1].

يقول:

راني من حبك يا امام الغيد	مثل الطير الّي حاصل في الأسجان
عابد غير التخمام و التنكيد	هايم مهموم مريض في الأحزان
ما نرضى عمري نبوس لإيد	وعلى وجــهك جرعت كل امحان[2]

وله قصيدة مطوّلة يصف فيها زقاق تلمسان عنوانها "يا ضو اعياني" يقول:

يا ضو اعيـــــاني	يا القمري زرق الجنحان
جمل و اسعـــتاني	و سلم على ناس تلمسان
يا زين الدرجـــــة	نرسلك لبنات البهجـــة
واعـــزم لا ترجى	ادخل على باب السجان
تفرج فـرجـــــــة	في البها والــزين الفتـان

[1]– بومدين بن سهلة التلمساني، الديوان، جمع محمد الحبيب حشلاف، تممه و حققه، محمد بن عمرو الزرهوني، المؤسسة الوطنية للاتصال، الجزائر،ط.1، 2001، ص 21.

[2]– المصدر نفسه، ص 22.

من ثمة عـــــــول درب مسوفة ليه ادخل

بالاك لا تغفـــــل حوس بعينيك القران

الزين الكامـــــــل يا درى باقي كيف زمان

من ثمة أعــط زورة عند كحل السالف بدرة

ضاوية الغـــــــرّة شبيهة البدر حين يبان

ما ريته في امـــراة زينها و بهاها فتان[1]

افتتح قوله بالضياء والألوان الموسومة على القمري، طير جميل كان الشعراء يمتدحونه ويجعلونه ناقلا لأخبارهم يتوسمون فيه الفلاح، ثم ينتقل ليخبرنا عن مناطق وأحواز بتلمسان كباب السجان، درب مسوفة، القران، ثم يعود للتغزل بمحبوبته بدرة الّتي يقال أنه أحبها بشغف يقول:

وانــزل في باب زير فاقد أهلي في الأمان

زادو لي تحيـــــير حالتي في الغربة تشيان

يطلب النزول بحي باب زير، الّذي لا زال مقامه موجود ليومنا هذا، ويبدوا أن الشاعر كان فاقدا لأهله لتغربه عنهم ما زاد من بأسه وسوء حالته، نلمس الحس المرهف للشاعر، وتمسكه بوطنه ووفاءه له، هي الذات الّتي أسستها الثقافة الشعبية والتي يجب محاكاتها، فهي سبيل حب الوطن وبناء الحضارة، و تحقيق الذات، الشخصية الّتي تتم إلى تحقيق الوحدة.

ثم يقول:

يا حمام خـــذ الزاد واقصد في الحين باب الجـــياد

عند باب الحـــــداد و تفرج في الخيل و امش زربان

توجد اشياخ البـــلاد اجلس مع ناس تلمســـــــان[2]

لا زال مسترسلا في وصف مدينته وهيامه بجمالها مصاحبا في ذلك القمري والحمام، بصفتهما رسولين أمينين يوصلان الأمانة ويعودان بالجواب، كما يأمر المسافر بحمل الزاد، وقصد باب الجياد، وباب الحداد، الّذي يقول أنّ به خيل، لكنه حثّ على الإسراع، ربما لزيادة معرفة

[1]- المصدر السابق، ص 91.

[2]- المصدر نفسه، ص 95.

المدينة بشكل أكبر، كما يوجد شيوخ البلاد يستأنس بالجلوس إليهم والسماع منهم، حث على نظرية العلم والتعلم، والتبصر والتدبر، مزج الروح بالذات، والماضي بالمستقبل راسما صورا بديعة، وتاريخا مجيدا يحمله إلى الخلود وبتباهي الخلف بما ترك الأسلاف، فهم خير سلف، وجب إنهاء ما بدأوه، والعمل على بناء الشخصية العربية.

ويبقي العشق والهوى دربا الفتى في مواجهة الحياة، فقد قيل ((اعشقوا فإن العشق يطلق اللسان، ويفتح جبلة البليد والبخيل، ويبعث على التلطف وتحسين اللباس، وتطييب المطعم، ويدعو إلى الحركة والذكاء وتشريف الهمة))"[1]

و يختتم فصيدته:

الزين سبـــــاني تلـــــف عقلي يا تمحاني

في درب المليـاني عنـــــد جامع سيدي الوزان

بن سـهلة رانـــــي طالب العفو من عظيم الشان[2]

يختتم قصيدته بتغزله وهيامه بالجمال الفتان بدري الملياني قرب جامع سيدي الوزان، مقرنا ذلك بطلب العفو من العظيم فهو العالم بسره وعلانيته، وبخيره وشره، وله الأمر من قبل ومن بعد.

هي ذي صورة وجيزة عن مدينة تلمسان، وكيف جاد بها الشعراء، وهذه هي سنتهم في الحياة، فالشعر كان حياتهم وسنام بلاغتهم، وملجأ إلهامهم، فتركوا بذلك سجلا تاريخيا حافلا، وقد أفادوا العصر الحديث بكثير مما لم تدركه كتب التاريخ.

من هنا تبرز أهمية الشعر الملحون، الذي تعددت وظائفه لما جمع من إبداع لغوي، وتصوير جمالي، ووصف اجتماعي وبيان اقتصادي وتقرير سياسي، وتزيد ضرورة العمل على جمعه وتدوينه، ونشره، فهو يعد وثيقة تاريخية، وصورة شخصية لذات عرفت الحياة عن تجربة، وعملت على تواترها عبر الأجيال، فأحكمت بذلك العقل وحادت عن الوهم، وحاكت القلب، فجمعت بذلك التجربة الإنسانية، لتكون ثقافة شعبية متزنة، تحيي الماضي وتبني المستقبل وتحفظ الحضارة.

---

[1]– شهاب الدين الأبشيهي، المستطرف في كل فن مستظرف، تحقيق سعد حسن محمد، مكتبة الصفا، القاهرة، ط.1، 2005، ص 434.

[2]– بومدين بن سهلة، الديوان، ص 97.

نستخلص مما ذكر سابقا علاقة الشعر الملحون بالتنمية المستدامة، والتي تتجلى في إحياء التاريخ بإعادة قراءة النص وقد يستثمر هذا في المجال السياحي، حيث يأخذ السائح نظرة مباشرة عن الآثار الموجودة وقد يعمل المرشد على قراءة القصيدة في المكان المناسب فيزيد هذا من متعة السائح، وقد ترفق هذه القصائد بالمكان الأثري وتعلق على جدرانها حتى تكون معلما لها.

فقد أصبحت تقام للشعر الملحون مهرجانات محلية ووطنية ودولية، وهي تجلب الكثير من الباحثين والمهتمين بالملحون، كما تفتح بذلك مجالا للدراسة وانفتاحا على الآخر، هذا ما يحقق احتكاكا مع الثقافات المحلية والدولية وقد تستثمر في هذا المجال عدة اجراءات تساهم في التنمية الاقتصادية، وذلك في المجال السياحي، كما توحي لكثير من الروائيين والفنانين التشكليين بمواضيع تخدم الخيال الفني، وتحقق متعة للقارئ المحلي والعالمي، وما نقرأه اليوم في الروايات العالمية ما هي إلا انعكاس للتراث المادي واللامادي وما ذكره الشعراء القدامي.

فلو نظرنا إلى شعر ابن مسايب والمنداسي وبن خلوف وبن سهلة وغيرهم لوجدنا أن كل قصيدة يمكن أن تكون رواية، كما هي ملهمة للفنان التشكيلي حينما نلتقي بذلك الوصف التفصيلي للمدينة وللمرأة وللبساتين، وحتى للأشياء كالسجاد والأواني وسروج الجياد والملابس، كل هذا هو مادة خام للتنمية إن أحسنا استغلالها.